

إيلي ريخس*

اليوم الذي يلي الحرب: الكتابة على الحائط**

"هذا ما يجب أن نتذكره: الكتابة لا تزال على الحائط" - بهذه الكلمات ختم القاضي تيودور أور، رئيس لجنة التحقيق في أحداث تشرين الأول/أكتوبر 2000، محاضرة ألقاها في جامعة تل أبيب سنة 2004، بمناسبة مرور عام على نشر تقرير اللجنة، وعرض فيها مختصر هذا التقرير. وكان يقصد بذلك قابلية الانفجار في وضع العلاقات بين اليهود والعرب، في الفترة السابقة لأحداث تشرين الأول/أكتوبر.

يبدو أن كلماته تنطبق أضعافاً مضاعفة على وصف الوضع منذ نشوب الحرب في الشمال. وكثير من يجرون اليوم مقارنة بين حرب يوم الغفران في سنة 1973 وحرب لبنان في سنة 2006: المفاجأة؛ الثمن بالأرواح؛ غياب الجهوزية؛ نقص العمل الاستخباراتي؛ ترهل الإدارة؛ عجز القيادة؛ تحطم صورة قوة إسرائيل في العالم العربي؛ فقدان أساس الردع.

حقاً، إن أوجه التشابه كثيرة.

إلى جانب ذلك، حدث تغير أساسي في أحد المجالات: موقع مواطني إسرائيل العرب في المعركة. سنة 1973، أثير القلق بشأن إقدام عرب من سكان الدولة على مس المؤخرة اليهودية (كان يغال ألون منذ أوائل الخمسينيات قد وضع في الاعتبار مثل هذا المكان بوصفه أحد عناصر الخطر من جانب عرب إسرائيل). لكن هذه الخشية لم تتحقق في الواقع.

وفي سنة 2006، اختلف الوضع تماماً. فقد أبرزت الحرب حصة العرب الكبيرة في الجبهة الداخلية في الشمال، وكذلك الثمن المرتفع الذي دفعوه: 18 قتيلاً. ويبدو أنه كان في الإمكان توقع مظاهر تضامن وتعميق التماسك الداخلي بين اليهود والعرب انطلاقاً من إحساس بوحدة المصير والشراسة، لكن الخطب لم يقرب بين القلوب. بل إنه - على العكس - عمق الفجوات. وظل القول إن "الصاروخ لا يميز بين بلدة يهودية وأخرى عربية" شعاراً فارغاً من المضمون.

في المقابل، فإن معضلة الهوية القومية للعرب في إسرائيل ازدادت حدة بما لا يقاس في فترة الحرب [...]. فالتناقض الشديد بين هويتهم الفلسطينية والعربية وبين مواطنتهم الإسرائيلية ازداد عمقاً، وانعكس واضحاً في تراجع العلاقات بين اليهود والعرب في الدولة.

لقد توقع الجمهور اليهودي أن تتضامن الأقلية العربية مع الدولة، وتدين حزب الله، لكن ردة فعل من هذا النوع لم تكن لتتحقق. وبدلاً منها، ارتفعت أصوات انتقادية في صفوف العرب ضد سياسة الحكومة، التي فهمت على أنها عدوانية، مثيرة للحروب، وأداة تنفيذ للسياسة الإمبريالية الأميركية. وأكثر من ذلك، فإن الخسائر الجسيمة في الأرواح لدى الجانب الإسرائيلي، وغياب القدرة على إلحاق الهزيمة بحزب الله، عززت صورة نصر الله في أعين كثيرين. كما أن عدم توفر ملاجئ ووسائل إنذار في البلدات العربية، ووجود إحساس عام بالتخلي عنها، لم يؤدي إلا إلى زيادة الإحساس بالإحباط.

لقد أصر المتحدثون باسم العرب على حقهم المشروع في توجيه النقد إلى سياسة الحكومة، من دون أن يُفسر ذلك على أنه تعبير عن شجب الدولة. لكن الجمهور اليهودي، في جزء كبير منه، رفض هذه النظرة. وفي ضوء التدخل المكثف من جانب أعضاء الكنيست العرب، الذين لم يتركوا فرصة إلا عبّروا فيها عن آرائهم وأثاروا الغضب والمشاعر، ازدادت مظاهر النفور والتحفظ والعداء المكشوف من جانب الجمهور اليهودي إزاء العرب.

ويكفي إلقاء نظرة سريعة إلى قائمة الردود في شبكة الإنترنت على أقوال عضو كنيست عربي أو آخر، لإدراك عمق التراجع الذي حدث في العلاقات اليهودية - العربية. ويبدو أن الردود التي أرسلها القراء تضامناً مع مقال بن كسبيت في صحيفة "معاريف"، المعنون "يا أحمد، هل تسمعي؟"، قد بلغ عددها ذروة غير مسبوقة: نحو 1240 رداً. السؤال المطروح الآن هو: ماذا بعد؟ أولاً، يجب الإشارة إلى أنه في هذه المرة، وعلى نقيض تام مع أحداث تشرين الأول/أكتوبر 2000، حين سارعت الحكومة، من خلال "اللجنة الوزارية لشؤون العرب مواطني الدولة"، إلى القيام بنشاط على الصعيد المدني، فإن صوت الحكومة الحالية غاب عن الساحة. لقد جرت حقاً زيارات تعزية من جانب وزراء، ولقاءات بين قيادة الجبهة الداخلية وديوان رئيس الحكومة وقيادات البلدات العربية، إلا أن هذه كانت نقطة في بحر. وفي المقابل، حاولت المنظمات غير الحكومية؛ بإمكاناتها المحدودة، أن تملأ الفراغ.

لم يُدرج الموضوع العربي - الداخلي بتاتاً في جدول أعمال الحكومة طوال أيام الحرب [....]. وثمة ضرورة لإجراء حساب مع النفس، سواء من جانب الجمهور العربي أو من جانب الجمهور اليهودي. والجانبان ملزمان، هنا والآن، بحسم مسألة ما إذا كان العرب في إسرائيل جزءاً من الدولة أم لا. بحسب رأيي الشخصي، الرد على هذا السؤال واضح: العرب في إسرائيل هم هنا ليبقوا، وبالتالي على سلطات الدولة أن تبادر إلى عمل سريع وإزالة التوترات وتحبيد الغضب المتراكم والتوجه نحو أعمال تأهيل سريعة، انطلاقاً من التعاون الوثيق مع ممثلي الجمهور العربي والحوار المكثف معه. وإلاً، وكما ذكر القاضي أور، ستظل الكتابة منقوشة على الحائط، لا بل بحروف أسطح. ■

(*) رئيس مشروع كونرد أدناور.

(**) المصدر: جزء من نشرة خاصة، بعنوان: "العرب في إسرائيل والحرب في الشمال: صورة وضع"، صدرت باللغتين العبرية والإنكليزية في 14/8/2006، عن مركز موشيه دايان لدراسات الشرق الأوسط وإفريقيا، ومشروع كونرد أدناور للتعاون اليهودي - العربي، من موقع المشروع في الإنترنت: www.dayan.org/kapjac

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي

التالي: majallat@palestine-studies.org

يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:

http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx